أحوالُ الأمة الإسلامية

(خُطبة عيد الفطر)

صالح الهطالي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، بلغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل ربه حتى أتاه اليقين.

أما بعد: أحييكم أيها الإخوة المؤمنون بتحية الإسلام الخالدة، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهنيئًا لكم حلول عيد الفطر المبارك، أعاده الله علينا وعليكم وعلى جميع المسلمين والأمة الإسلامية في حال أحسن من حالها، وفي سبيل خير من سبيلها.

أيها المؤمنون:

عندما بزغ فجر الإسلام على هذه المعمورة، ورأى الناس طبيعة المنهج الذي يدعو إليه، أسرعوا للدخول فيه أفواجًا. وعندما ذاق المسلمون في أفيائه طعم الحرية والعدالة والمساواة لم يكن بوسعهم أن يستأثروا بهذا النور الرباني والإنسانية في ظلمات شتى بعضها فوق بعض، فهَبُّوا للدعوة إليه ونشره بين القاصي والداني، وباعوا في سبيل ذلك أنفسهم وأموالهم، وصدقوا الله ما عاهدوا عليه، فانتشر نور الإسلام إلى أقاصي الصين شرقًا، والأطلسي غربًا، وإلى أسوار فيينَّا شمالًا، وأدغال أفريقيا جنوبًا، حتى غمر هذا النور معظم أرجاء المعمورة، وتوحَّدت الأرض تحت شعار واحد هو: "لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله"، واستَقَتْ من مَعينٍ واحد هو كتاب الله الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولأول مرة في التاريخ، وفي فترة أقل من قرن من الزمان تسجد الأرض لرب واحد لا شريك له، لا يقودها إلى ذلك حاكم أو جبار، وإنما رسوخ في العقيدة وثبات في اليقين.

ولم يكن في وسع المسلمين أن يصبحوا رهبانًا وعُبَّادًا ويغلقوا على أنفسهم الأبواب، ودينهم يدعوهم إلى أن يسيحوا في أرجاء هذا الكون، ويتفكروا في ملكوت السماوات والأرض، فهَبُّوا ينشدون العلم في كل مكان، وقاموا بدراسة كتب اليونان والرومان والفرس والإغريق والصينيين والهنود، وعجنوا كل هذه الثقافات ومزجوها بروح الإسلام النشطة الزكية، فتمخَّضتْ عن كل هذا حضارة علمية وثورة فكرية ما عرف التاريخ مثلها من قبل، فكان منهم الأطباء والصيادلة والجراحون وعلماء الاجتماع والجغرافيا والتاريخ والفلك، وكان منهم الفلاسفة والمفكرون، هذا بجانب الفقهاء وعلماء الحديث والكلام والمفسرون، وصار المسلم يفتح البلدان بروح العدل، ويحكمها بروح الحرية، ويسمو بها بروح العلم، وقد استمر العالم يَنْهَلُ من معين هذه الحضارة العلمية قرونًا عديدة، في الوقت الذي كانت أوروبا تغطُّ في سبات عميق مثقلة بأغلال الكنيسة.

وبعد أن بدأت أوروبا تصحو من غفوتها، وتنفض غبار النوم عنها، وأبصرت هذا النور الفياض يلفُّ أرجاء المعمورة، اغتاضت لاستئثار المسلمين دونها بتلك الحضارة الخالدة، فانزرعت في نفوسها بذور الحسد، وأرادت أن تغتصب من بُناة الحضارة حقهم، فجرَّتْ إليهم الجيوش في حملات صليبية حاقدة، وقام الكُتَّاب- وفي مقدمتهم القساوسة والمستشرقون- فصبُّوا جام غضبهم على الإسلام وأهله، ونسبوا إلى الإسلام ما هو منه برئ، وعندما لم تَفُتَّ مثلُ هذه الحملات وتلك الافتراءات من عضد الإسلام شيئًا، أرسلوا إلى بلاد الإسلام سموم حضارتهم، وعُصارة انحطاطهم وتحلُّلهم، رغبة منهم في إبعاد المسلمين عن دينهم، وقد نجحوا في هذه الحملات الأخيرة نجاحًا كبيرًا، فانسلخ المسلمون من دينهم، وصاروا أعداءً له بعد أن كانوا أنصارًا.

وقد كان من الأساليب التي ابتدعها الغرب لحرب الإسلام قضيَّتَيْ الاستشراق والتبشير؛ فبالاستشراق استطاعت أوروبا أن تُشوِّه صورة الإسلام عن طريق ما يكتبونه عن القرآن والنبي محمد- صلى الله عليه وسلم- وصحابته، وشوَّهوا تاريخ الإسلام وزوَّروه، وقد كان معظم هؤلاء الكُتَّاب من القساوسة وأرباب الكنيسة، وبلغ هؤلاء المستشرقون حدًّا كبيرًا في عدائهم للإسلام جعل بعضهم يراجعون أنفسهم، فوجدوا أنهم قد أخطؤوا كثيرًا في حق الإسلام، فدخل كثير منهم الإسلام، وصاروا يدافعون عن الإسلام ونبي الإسلام في كل ميدان، وردُّوا على غيرهم من المتعصِّبين، ومن هؤلاء الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي، والباحث الكبير موريس بوكيه صاحب كتاب "العلم في التوراة والإنجيل والقرآن"، والمغني البريطاني الشهير كات ستيفن الذي أسمى نفسه يوسف إسلام، وغيرهم كثير.

أما المنصِّرون فقد كانوا أكثر خطرًا لأنهم قَدِموا إلى بلاد الإسلام على هيئة أطباء ومدرسين وعلماء وباحثين، وكانوا في كل رحلاتهم يستغلون أية فرصة لتنصير المسلمين، وكانوا يأتون مع هيئات إغاثة اللاجئين، ويُقيمون معسكرات اللاجئين والكنيسة تمدُّهم بالمال، حتى إنه يُقال إن في إندونيسيا وحدها أكثر من عشرة آلاف منصِّر.

ولم يكتفِ الغرب بهذه الطرق لإفساد المسلمين، ولكنهم حاولوا نشر الرذائل في المجتمعات الإسلامية عن طريق الصحف والمجلات والإذاعة والتلفاز والسينما والفيديو، وفي هذا يقول أحد قادة أوروبا: "**إن كأسًا وغانية يفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع**". ومن العجيب أنه جاء في إحدى الإحصائيات أن في منطقة الخليج وحدها أكثر من خمسة ملايين جهاز فيديو، أي أكثر من خمس أجهزة الفيديو في العالم.

وقد استطاع الغرب بهذه الأجهزة أن يُغووا الشباب عن طريق الأغاني الماجنة والمسلسلات الفاضحة والرقصات العارية، وحاولوا كل جهدهم في إخراج البنت المسلمة من بيتها بدعوى مساواتها بالرجل، وكأن الإسلام حَرَم المرأة حقها، وقاموا أيضًا بجلب الأفكار الهدامة من علمانية واشتراكية وقومية ورأسمالية وحداثة، وجلبوا أنظمة هدامة تعارض الإسلام جوهرًا ومظهرًا؛ فمن البنوك الربوية إلى القوانين الوضعية.

أيها المسلمون:

هذا ما يحاوله الشرق والغرب لإخراج شبابكم وفتياتكم من دينكم، فماذا أنتم صانعون؟

إن الجواب لهذا السؤال يتلخَّص في ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- حيث يقول: "**إن الله أعزنا بالإسلام، فمتى ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله**"، ولن يُصلِح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فعليكم أن تتمسكوا بأمر دينكم، وأن تكونوا على دراية بما يكيده لكم أعداؤكم، وأنقذوا أنفسكم وأهليكم وأبناءكم من نار وقودها الناس والحجارة، وحافظوا على أبنائكم وبناتكم، وتمسَّكوا بعرى دينكم، والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على النبي المصطفى والحبيب المجتبى، وعلى آله الأخيار وصحابته الأبرار، وعلى كل مَن سار في دربهم، واقتفى أثرهم، واستنَّ بسنتهم إلى يوم البعث والنشور.

اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأذِلَّ الشرك والمشركين، واقطع دابر أعداء الدين، واستأصِل شأفتهم، ولا تدع لهم من باقية، يا رب العالمين.

اللهم أبرِم لهذه الأمة أمر صلاح ورشد، يُعزُّ فيه أهل طاعتك، ويُذلُّ فيه أهل معصيتك، ويُؤمَر فيه بالمعروف، ويُنهى فيه عن المنكر، ويُحكَّم فيه كتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

اللهم من أراد الإسلام وبلاد الإسلام بخير فوفقه لما يريد، ومن أراد الإسلام وبلاد الإسلام بسوء فخذه أخذ عزيز مقتدر؛ فإنه لا يُعجزك يا رب العالمين.

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، المسلمين والمسلمات، وتابع بيننا وبينهم في الخيرات، يا رب العالمين.